

الباب الثاني

قيام الدولة الاموية بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل (صقر قرش) :

سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ، وتولى السفاح أمر الخلافة الإسلامية بعد أن تغلب على قوات الأمويين في معركة نهر الزاب بانتصار عمه عبد الله بن علي على جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وقد طارد العباسيون من بقي من الأمويين مطاردة عنيفة في أنحاء الاقطار الإسلامية ، وقتلوا عددا كبيرا منهم بطريقة القدر ونكث اليهود ، وكان من نتائج هذه المطاردة أن اختفى عدد من هؤلاء الأمراء ، واستطاع احدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ان يفر من وجوه المطاردين وينجو بنفسه وكان إذ ذاك في العشرين من عمره

تربى عبد الرحمن يتيما في بيت الخلافة الاموية ، فقدمت ابوه معاوية سنة ١١٨ هـ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جده هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين ، وكانت امه من قبائل البربر تسمى راح ، وكان الخليفة يقطعه اخماس الاندلس فانجبت انظاره إليها بعد نزكبة أسرته بالمشرق

جدة بنو العباس في طلبه ففر منهم إلى افريقية وإليك ما قاله عن كيفية فراره :

« وإني لجالس يوما في قرية على شط الفرات في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد
كان بي وابن سليمان يلعب أمامي ، إذ دخل الصبي فازعابا كيا فأهوى إلى حجرى
فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى إلا التعلق بي وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان
عند الفرع ، فخرجت لا نظرفاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود
عليها منحطة ، وأخ لي حدث الس كان معى يشتد هاربا ويقول لى « النجاة يا أخى
فهذه رايات المسودة » ، فضربت يدي إلى دنائير تناولتها ونجوت بنفسى والصبي
أخى معى ، وأعلمت أخوتى متوجهى وأمرتهن أن يلجئننى ومولاي بدر معهن ،
وخرجت فكمننت فى موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل
فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ، ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط
الفرات . وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى فدل على عبد سوء له ،
فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثا لنفسى وسبح الغلام أخى فنادانا
القوم من الشط أرجعا لا بأس عليكما ، فلما قطعت نصف الفرات قصر أخى فالتفت
لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى اليهم وهم يخدعونته عن نفسه فناديت « نقتل
يا أخى إلى إلى » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الفرق فاستعجل الانقلاب
نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، ثم قدموا الصبي أخى الذى صار اليهم بالأمان فضربوا
عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ، ومضيت إلى
وجهى أحسب أتى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ،
ثم خرجت هاربا أروم المغرب حتى وصلت ، إلى أفریقیة وهناك لحق بى مولاي بدر
وسالم ومعهما دنائير وجواهر »

حال أفريقية وقتئذٍ

كان يحكم أفريقية وقتئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان يأمل أن تبقى ولاية أفريقية له في خلال العهد الجديد ، ولذلك قلب ظهر المجن للأمويين أسياده القدماء ، ودار مع الدهر ونسى احسانهم اليه ، ولذلك جد في طلب عبد الرحمن الأمير الأموي حتى بفتك به ، واستطاع عبد الرحمن أن يهرب من وجهه وفتكه الوالى بولدى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

جاء الأمير الأموي بلاد برقة على غير هدى . وانتقل بين قبائلها وكان يلقي في كل بلد حل فيه كراما يكرمون مشواه لما اتصف به من دماثة الخلق ونبل الصفات ، وأخيرا انتهى به المطاف إلى مدينة تاهرت حيث تقيم قبيلة زناته وهى من القبائل المشهورة بين البربر ، واليها يتنسب طارق بن زياد ، وكانت منتشرة في جزء عظيم من ساحل أفريقية ولها أعوان وأنصار كثيرون . وقد لقي الأمير بينها ما كان ينشده من عطف وبخاصة بين قبيلة نفزة الضاربة حول سبته والى تنسب أمه اليها ، فكان منها أخواله ، وكان قد قضى نحو الخمس سنوات في مطافه وتأكد في أثنائها أنه لا يستطيع إقامة ملك له في أفريقية فاتجهت أنظاره إلى أسبانيا

حال اسبانيا في ذلك العهد :

كانت الحروب الأهلية تمزق أسبانيا ، وكان أميرها يوسف الفهري يطارد الثوار في طليطلة وسرقسطه ، فرأى الأمير الأموي ان الفرصة سانحة للاتصال بانصار أسرته ، فيها وأرسل بدرا مولاه يحمل خطابا إلى هؤلاء الانصار يشرح فيه ما لاقاه من نفي وتشريد وما ناله من اضطهاد في أفريقية ، وسافر بدر

لأتمام رسالته ونزل بين قبائل الأمويين النازلة في مقاطعة البيرة وجيان ، واجتمع بالزعماء وكانوا حاقدين على إدارة يوسف الفهرى ووزيره الصميل لميلهما إلى الفهرين والقيسيين وتفكيرهما في سلخ الأندلس عن خلافة العباسيين والاستقلال بها كاشف بدر هؤلاء الزعماء بمقصده وأخبرهم بأمر عبد الرحمن الأموى فرحبوا بالفكرة ، وقرقرارهم على دعوة عبد الرحمن إلى بلاد الأندلس وعقدوا الخناصر على مؤازرته ، وأرسل الزعماء الأمويان أبو عثمان عبيد الله وصهره عبد الله بن خالد الدعوة إلى الأمير الأموى ، وطلبوا إليه الإسراع بالحضور إلى الأندلس ، وسافر وفد بصحبة بدر لتنفيذ ما استقر الرأي عليه ، وفي حضرة الأمير في نهارت تقدم رئيس الوفد وهو تمام بن علقمة وعرض أمانة الأندلس عليه باسم جند الشام بها وخطب قائلاً :

« اجمع المسلمون الصادقون على اتمامك أمير الجزيرة فيسمعك ان تبني فيها ملكاً مشيد الأركان ، موطن الدعائم على أساس أقوى من الجبال ، معتمداً على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة . لا ريب انك ستجد مقاومة وبعض الخطر ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها ونحن جميعاً نهب إلى الوغى ، ونبتل الأرواح في سبيل ارتقائك إلى عرش الأمانة التي نلتقي مقاليدها اليك ، ونحفظ بنيانها من ان يثلم »
واجاب عبد الرحمن الدعوة بخطاب جاء فيه :

« ايها السراة الأبحاد . اجابة لرغائبكم . وسعي وراء امانيتكم في اصلاح شؤون مسلمي اسبانيا اذهب معكم ، باذلا النفس في سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فاذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيتم مني اخا ثقة يقامحكم الشقاء والهناء . »

فرح شيوخ زناته لهذا التوفيق، وهنأوا عبد الرحمن بالمنصب الخطير، وأمدوه
بسمائة وخمسين فارساً من فرسان تاهرت فعبر بهم البحر، ونزل بحصن المنكب
على ساحل البيرة وكان ذلك في ربيع الآخر عام ١٣٨ هـ سبتمبر سنة ٧٥٥ في
خلافة أبي جعفر المنصور

عبد الرحمن بالاندلس:

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة في جميع أنحاء اسبانيا
الجنوبية، فهرعت اليه وجوه القبائل وفي مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد وكانوا يبايعونه
ويلقبونه بالداخل، وفي مدة وجيزة جمعوا له عشرين ألف جندي، فأخذ ينقل
على رأس هذه القوة من إقليم إلى آخر قاصدا قرطبة، وكان رؤساء الخيالة ينضمون
اليه في أثناء المسير، وقد سلك الطريق في زحفه من الشرق إلى الغرب في البلاد
التي يسكنها المضربون والسوريون المواليون له، وكانت المدن تفتح له أبوابها، ولما
قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قريش لاستقباله، والآن تركه يزحف على
قرطبة ونعود إلى أمر يوسف الفهري ووزيره الصميل

يوسف الفهري والصميل:

ثار عامر القرشي في وجه يوسف وانضم اليه قرشي آخر يسمى حباب، وعملا
على التخلص من يوسف ووزيره الصميل كما مر بنا، وقد نجح الثائران في جمع
الاعوان وحاربوا الصميل وحاصروه في سرقسطه، ولكن الامويين في بلنسية وبني
قيس وبني كلاب وبني محارب وبني سليم وغيرهم هبوا لانقاذه، ولما رأهم
المحاصرون تخلوا عن الحصار ولاذوا بالفرار. ونجا الصميل مما كان أحاط به وطلب
اليه زعماء الامويين أن يسمح لهم بمقابلة خاصة، ولما قابلوه اطلعه عبید الله على

رسالة الأمير الأموي وسأله رأييه فيها ، فوعده الصميل بالنظر في الأمر وإبداء الرأي فيه بعد وقت قليل ، ورجع الأمويان وأتباعهم إلى أوطانهم

أما يوسف فقد كان يجهز الجند للخروج بهم من قرطبة لمعاقبة ثوار الشمال وطلب إلى الأمويين الانضمام اليه ، وزحف حتى وصل إلى طليطلة ومنها سار إلى سرقسطه ، وبالقرب من ممرات جبال الشارة لحق به الأمويان بمفردهما وطلبا اليه أن يمهلهما قليلا حتى يجمع أنصارهم محصول الربيع ثم ينهضون لمؤازرته في حملته التآديبية ، فأعطاهما يوسف بعض المال وقفلا راجعين ، وفي طريقهما قابلا الصميل وهو يريد اللحاق بيوسف وسألاه عما استقر عليه رأييه في أمر عبد الرحمن ، فوعدهما أولا بالمساعدة ، ثم رجع وعدل عن الرأي وأخبرهما بأنه لا يوافق على ارتقاء عبد الرحمن عرش البلاد خوفا منه وحرصاً على مركزه في الأندلس ، وأنذرهما بأنه سيكون من المؤازرين ليوسف ضد هذا الأمير ، فتظاهر الأمويان بالموافقة على رأييه ، ورجعا إلى مقر نفوذهما وهما يضمران المضي في خطتهما

كان على الصميل وقتئذ أن يكشف يوسف بأمر الأمير الأموي ولكنه لم يفعل ، وجد يوسف في طلب ثوار سرقسطه ووصل إليها ، ووجد أن الشائرين لاذوا بالفرار ، وتقدم اليه زعمائهم يطلبون الصلح والأمان ، فقبل منهم على شريطة أن يقدموا له من القرشيين عامرا وابنه وهب وحبابا ، فسلموهم اليه ، فأمر بوضعهم في الأغلال وأخذ في محاكمتهم ثم سجنهم ، وكان من رأى الصميل أن تضرب أعناقهم ، ولكن يوسف لم يأخذ برأيه بسبب معارضة القرشيين

رجع يوسف إلى طليطلة فرحا بانتصاره على الثوار وذلك في أواخر سنة ١٣٧ هـ ٧٥٥ م ، ولكن ما لبث أن انقلب فرحه ترحا إذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الأندلس وما لاقاه من ترحاب بين أهل الجنوب ، وكان وقتئذ في وادي نهر الرمل

على بعد خمسين ميلا من طليطلة ، وعندئذ قتل الثلاثة المصفدين طعنا بالرماح ،
وكان في قتلهم أقول نجم سعدة . وبزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن

الصراع بين الأميرين :

أرسل يوسف في طلب مستشاره الصميل وأخبره بما سمعه عن عبد الرحمن
فأظهر الصميل استخفافه بالأمر ، وأشار عليه بالزحف للملاقاته معتقدا أن أنصاره
قليلون ، وأن هزيمة واحدة تنزل به كافية لاجباط غرضه والخلاص من شره ،
فأخذ يوسف برأى وزيره واستعد للقتال

حال جيش يوسف :

ذاع في عسكر يوسف نبأ قدوم عبد الرحمن وانضواء الجنوب تحت لوائه
والتفاف الانصار حوله ، وأنهم سيدعون لقتاله ، فسخط الحند لتأخر أعطياتهم كما
ساءم قتل القرشيين ، وأنهاك قواهم في حروب طويلة لا تنتهي ، فتسلل البينيون
بقطع من الليل عائدين إلى بلادهم ، وطلب القيسيون وبنى معد إلى الصميل أن
يؤخر الحرب إلى مستهل الربيع لأن الشتاء كان منهم قريب فلم يقبل ، وأجبرهم
على المسير ، ولكن السماء أمطرتهم مدرارا أثناء مسيرهم ، فرأى يوسف استحالة
الاستمرار في الزحف ، ومن ثم أمر بالعودة إلى قرطبة ، وكان يوسف يعتقد أن
عبد الرحمن لا يبنى ملكا ولا جلد له على الكفاح في سبيله ، وإنما يطلب رغد
العيش في الأندلس ويعنى نفسه بأن يتزوج عبد الرحمن باحدى بناته ، ويكتفى
بذلك عن خوض غمار الحروب ، فلم يكذب يوصل إلى قرطبة حتى أرسل بعثة إلى
عبد الرحمن من خالد كاتبه وعيسى موزع أرزاق الجند وعبد الله القيسى ومعهم
الهدايا ، فتفاوضت البعثة في مهمتها فأجاب عنه زعماء الأمويين أن الأمير إنما جاء

في طلب ما خلفه جده هشام من مال وعقار لا لا نزاع الامارة من يوسف ، ولم يكن هذا رأى عبد الرحمن ولكنه قبل مرغما ما ارتآه أنصاره ، فطلب إلى أبي عثمان عبد الله أن يكتب بذلك إلى يوسف ، ولكن لفظة نايبة من خالد كاتب يوسف ورئيس مفوضيه لأبي عثمان عبيد الله زعيم الامويين ، وكبير حاشية الامير عبد الرحمن غيرت مجرى التاريخ : ذلك ان خالدا تفاخر على أبي عثمان ، لأنه لم يكن ماهراً في الكتابة ولا قديراً على التعبير والتسطير ، فقال له : ستري العرق يسيل من ساعدك قبل أن تكتب ما تريد . عند ذلك غير أبو عثمان رأيه وغضب لما حسبه اهانة فصاح بخالده : صه أيها الكاذب لن ترى عرقاً يجري من ساعدي لأنه لا رد على مثل هذا الخطاب ، وألقى بخطاب يوسف في وجهه ، وضربه بقبضة يده على رأسه ، وأمر باعتقاله موثقاً بالسلاسل والأغلال ، وقال إن هذا أول انتصار لنا ، إن هذا الرجل يدير أمر يوسف ومن غيره لا يستطيع يوسف أن يعمل شيئاً ، فقال عبيد القيسى : لقد علمت ان خالدا رسول ، وان الرسول لا يمسه سوء . فقال أبو عثمان : « انت الرسول ولك منا الأمان ، فسر إلى صاحبك نحرسك عناية الله »

وهكذا فشلت مهمة البعثة ، وقطعت المفاوضات وأصبح السيف هو الحد الفاصل فيمس سيؤول اليه ملك الاندلس

الحرب بين الفريقين :

انضم إلى عبد الرحمن في هدنة الشتاء جند اليمين وقسم من البربر وستة من أمراء قيس لحزازات شخصية ، منهم جابر بن شهاب الذي قذف به يوسف إلى غمرة الحرب في الشمال قتل ، وحسين القرشي صاحب شهاب الذي عاد منهزماً ، وأبو بكر بن هلال العبيدي لشيء في نفسه ضد الصميل ، وثلاثة من بني ثقيف

من قبيلة الحجاج المشهورة بولائها لبني أمية

انقضى الشتاء وكل يوالى الاستعداد وحل الربيع فبدأ عبد الرحمن زحفه
بجنازة أرض الجند اليمينيين ، فدخل أرقيدونة صبيحة يوم عيد الفطر ٨ مارس
٧٥٦ م وخطب له فيها ، ومنها ذهب إلى شدونه ، فانضم اليه أثناء مسيره ٤٠٠
من المغاربة ، وخرج بنو كنانة من معد للانضمام ليوسف ، ولما اقترب من
اشبيلية انضم اليه حاكمها أبو الصباح اليحصبي وبايعه أهلها ، وعلم يوسف
باقترابه من قرطبة قتيلاً لقتاله ، وسار كل على ضفة من ضفتي نهر الوادي
الكبير ، وأصبح المسير سباقاً للوصول إلى قرطبة والنهر يفصل بينهما ، ووقف
عبد الرحمن ينهياً للقتال في وقفة عيد الاضحى ١٣ مايو ٧٥٦ م وقد صمم على
عبور النهر والهجوم على عدوه ، وتذكر عبد الرحمن أن في مثل يوم عيد الاضحى
قد انتصر الامويون في معركة مرج راهط على قائد فهرى يناصره وزير قيسى
فقال : ليكن الغد مجدداً لذكرى هذا الانتصار ، واحتال عبد الرحمن على عدوه
مراوغة ، فأرسل إلى يوسف انه على استعداد لقبول الصلح ، والشروط السابق
هرضا عليه ، والتي كادت أن تقبل لولا وقاحة خالد ، وانه سيعبر النهر في وضح
الغداة لابرامه ، وان حالة جنده تستوجب التعجيل في هذا الصلح لقلّة الطعام
لديهم ، وانه وقد خطا إلى السلم هذه الخطوات يرجو أن يمدّه يوسف بمؤن تفرج من
ضائقة عسكره ، وصدق يوسف ما زعم عبد الرحمن ووقع في الشرك فأرسل أغناما
وماشية ، وفي صبيحة يوم العيد كشف يوسف أمر خديعة عبد الرحمن إذ شاهد
جنده يتهيئون للقتال قتيلاً هو أيضاً ، وظهر عبد الرحمن على ظهر جواد وإلى جانبه
أمينه وكبير مستشاريه أبو عثمان عبيد الله يحمل اللواء ، وهجمت جيوش عبد الرحمن
بعد اجتياز النهر فهزموا أعداءهم ، وفر يوسف وحليفه الصميل ناجين بنفسيهما إلى

الشمال ، واستبسل القيسيون في القتال بعد فرار زعيمهم الصميل ، وباعوا أنفسهم غالية ، وسلب جيش عبد الرحمن معسكر يوسف وساروا مثقلين بالغنائم والاسلاب إلى قرطبة فدخلوها ظافرين ، وأسرعت جموعهم إلى قصر يوسف وقصر الصميل تسلب وتتهب ، ووقع في يد الجند غنائم قيمة وأموال طائلة ، ولما دخل عبد الرحمن قرطبة بادر إلى قصر يوسف فمنع السلب منه وحمل من به من النساء ورأى أم عثمان زوجة يوسف ومعها ابنتها فقالت له خذ بناصرنا كما أخذ الله بناصرك فهدم عبد الرحمن بصاحب الصلاة من اتباع يوسف وأمره أن يحتفظ بهن في أحد المساجد ، وكان جزاء عبد الرحمن أن أهدته إحدى بنات يوسف جارية تدعى حللا تزوجها ورزق منها ابنه هشاما ثانی أمراء الأمويين في الأندلس

استتباب الأمر لعبد الرحمن وسقوط يوسف والصميل :

هرب الصميل ويوسف الفهري وبذلا بمجهود اليأس ، فجمع يوسف أهل سرقسطة وطليلة وسار إلى مرسية فاستولى عليها ، وأسرع عبد الرحمن لملاقاته وباغت أبو زيد بن يوسف الفهري قرطبة وهي خلوة من الجند فاستولى عليها ، ولكن كل هذه الجهود كان مقضيا عليها بالفشل ، إذ لم يكدر يعلم عبد الرحمن بما كان من أمر أبي زيد حتى عاد إلى قرطبة ، وأسرع أبو زيد بالهرب وأخذ معه أبا عثمان عبيد الله أسيرا ، ولم يلبث يوسف والصميل أن أدركا عقم جهودهما ضد عبد الرحمن فاستسلا إليه ودخلا في طاعته ، وأمنهما عبد الرحمن على نفسيهما ومالهما ، وأخذ عنده أبا زيد وأبا الأسود ولدى يوسف الفهري رهينة ، وأطلق يوسف أبا عثمان عبيد الله كما أطلق عبد الرحمن خالدا كاتب يوسف ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يولييه ٧٥٦ م دخول الظافر ويوسف إلى يمينه والصميل إلى يساره . ولكن يوسف ما برح أن فر يبنى جمع أنصاره لاسترداد الملك فساء

ذلك عبد الرحمن وأمر بسجن ولديه وسجن الصميل الذي اتهمه بأن له ضلعا في تدبير هذا الحرب . وجمع يوسف جموع رجال مارد و عرب المغرب و سار الى أشبيلية و تردد في حصارها وكانت عدة جيشه عشرين الفا ، فسار ببغى قرطبة و لحقه أمير أشبيلية لمناجزته تأخيرا له حتى يصل الخبر إلى عبد الرحمن فيعد للأمر عدته ، وأخذ أمير أشبيلية يطاوله ويراوغه كرا و فرا ، ثم قاتله مبارزة رجل لرجل ثم حمل عليه فهزم يوسف و انتصر عبد الملك أمير أشبيلية ، وفر يوسف يريد طليطلة ولكن كشفه رجل في الطريق وعرفه فصاح بمن حوله أن يطاردوه فلاحقوا به وقتلوه ، وحمل أحدهم رأسه إلى عبد الرحمن فأمر بقتل ولده إبي زيد وإبقاء أبي الأسود سجينا ، وفي صبيحة يوم لقي القوم الصميل جثة هامدة ، والمعروف أنه مات خنقا بأمر عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن تبرأ من كل ريبة وسمح للناس أن يفحصوا جثته حتى يروا أنه مات خنقا نتيجة لكثرة الشراب .

عبد الرحمن أمير البلاد :

وهكذا تم الأمر لعبد الرحمن ، ومكن له في الأرض تفرق كلمة خصومه وانقسامهم على أنفسهم ، وإحياؤهم للمصيبة الجاهلية ، وبراعته في الانتفاع بما بينهم من حزازات ، وحزمه وعزمه ، وبعد همته ، ومكره ، وخداعه ، وسياسته التي اتبعها ومزج فيها اللين بالشدة والرحمة بالقسوة ، وسعة حيلته في مواجهة المشكلات وحل المضلات ، على أن استتباب الأمر له لم يكن مؤذنا بانتهاء متاعبه وحلول صفو أيامه ، إذ واجهته ثورات متتابعة وخطوب بعضها إثر بعض .

الثورات الداخلية في عهده :

أولا — ثورة طليطلة : حيث يقيم الفهريون من قبيلة يوسف في ٧٦١ م

١٤٤ هـ ثار هشام بن عزرة زعيم القهريين ، واستمرت ثورته سنتين ، ولكن عبد الرحمن تمكن من اخادها ٧٦٣ م و صلب عبد الرحمن زعماء الثورة عبرة لغيرهم .

ثانيا — حملة علاء بن مغيث والى أفريقية :

أرسل المنصور إلى الأندلس العلاء بن مغيث واليسا على أفريقية وأمره أن أن يزحف على رأس حملة لاسترداد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية ، فنزل بأقليم باجة ، ورفع العلم الأسود ، علم بني العباس ، ولم يكن معه جيش ، ولكن القبائل المتطاحنة ، وبخاصة القبائل المتورة من بينها أسرع للانضمام اليه ، فحاصر قرمونة ، واشتد الأمر بعبد الرحمن ، ولكن شجاعته لم تخنه في مأزقه هذا إذ خرج من أشبيلية ، واختار ٧٠٠ من شجعان جنده ، وأوقد نارا ، وقال : يا قوم ليس لنا إلا أحد أمرين أما موت وأما حياة ، وهذا غمد سيفي أرمى به إلى النار ، وأنى لأفضل فخر الموت في ميدان القتال على عار الفرار ، واقتدي به من حوله ثم انقضوا على المحاصرين وهاجموهم هجوما عنيفا فهزموا وولوا الأدبار وقتل قائدهم أبو العلاء و ٧ آلاف من جنده ، ووضع عبد الرحمن رأس أبي العلاء ورءوس زعماء جنده في حقيبة وفي أذن كل رأس رقعة عليها اسم صاحبها ، واستأجر رجلا من تجار قرطبة ليحمل الحقيبة إلى مكة : وكان المنصور يحج إليها إذ ذاك ، ولما علم المنصور بما كان قال : الحمد لله الذي جعل بيني وبين صقر قریش هذه البحار الواسعة

ثالثا — ثورة أهل اليمن بالأندلس :

ثار اليمانيون مطالبين بثار العلاء بن مغيث ومن قتل معه من رجال ، وتغلب

الثوار على أشبيلية وشدونه ، ونهض عبد الرحمن لمقاتلة الثوار وطاردهم مطاردة عنيفة ، وضيق عليهم الخناق في الأماكن التي تحصنوا بها ، وقتل كثيراً من زعمائهم ، وأمن الباقي وعاد إلى قرطبة في عام ١٤٩ هـ ٧٦٦ م منتصرا .

رابعاً — ثورة أبي الصباح اليحصبي :

ما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه ما فعله عبد الرحمن مع أبي الصباح بما فعله المنصور مع أبي مسلم ، كان أبو الصباح يمين على عبد الرحمن أن انضم إليه في مسيره إلى قرطبة وسلم إليه أشبيلية ، ولكن عبد الرحمن كان يرتاب في حسن ولائه فأبعده إلى أشبيلية وجعله حاكماً عليها ثم عزله من منصبه ٧٦٦ م ، فاستنفر قومه لنصرته فهبوا جميعاً للقتال ، وخشى عبد الرحمن سوء العاقبة فلجأ إلى الخداع فأرسل أماناً لأبي الصباح واستدعاه إلى قرطبة للنظر في مظلمته ، وسار أبو الصباح في أربعائة من رجاله تركهم بباب القصر ، ثم دخل لمقابلة عبد الرحمن وأغلظ أبو الصباح القول لعبد الرحمن وعنفه على ما كان من سوء معاملته له ، فاشتد الغضب بعبد الرحمن وأراد أن يطعن أبا الصباح ولكن هذا أفلتت من الضربة فاستدعى عبد الرحمن الجند فقتلوه ، وكان عبد الرحمن قد تأمر مع جند أبي الصباح قبل الإقدام على قتله ، واستاء من هذا الفدر ابن خالد وزير عبد الرحمن وهو الذي حمل الأمان لأبي الصباح فاعتزل منصبه ورفض العودة إلى الوزارة مراراً رغم إلحاح عبد الرحمن عليه في ذلك .

خامساً — ثورة البربر :

ظهر فقيه من البربر يسمى محمد بن عبد الله وادعى أنه من نسل فاطمة من قبيلة مكناسة الضاربة في شرق الأندلس ، وكان من المجتهدين في البحث في الدين

والأحاديث والتفسير، واشتغل بمهنة التعليم وثارت معه مكناسة، فرحف إلى الاقليم الواقع بين نهري الوادي البانع والتاجه واستولى على ما رده واقليم ريه وماحولها، وسار إلى طليطلة فانضم إليه عرب المغرب من اليمانيين، وهزم جيوش أبي عثمان عبد الله حاكم الاقليم مرارا، ونهب معسكره واعتصم بالجبال واستفحل أمره ودامت ثورته عشر سنوات وعبد الرحمن لا ينال منه منالا، وقام أنصار أبي الصبغ زعيم اليمانيين بهجوم مفاجئ على قرطبة أثناء انشغال عبد الرحمن بحرب محمد بن عبد الله فماد اليهم عبد الرحمن وشنت شملهم وقتل منهم ثلاثين ألفا، ثم واصل هجامة على جيش محمد بن عبد الله حتى أخمد الثورة بعد أن قتل محمدا رجلا من أتباعه

سادسا: اجتماع عصبة المتآمرين وانضمام شرلمان اليهم:

تآمر سليمان بن يقطان الاعرابي السكبي حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب صهر يوسف الفهري وأبو الأسودين وكان قد فر من سجن عبد الرحمن الداخل بعد أن تظاهر بالعمى على ثل عرش عبد الرحمن، وبلغ من شدة مقتهم له أن استعانوا ٧٧٧م بشرلمان ملك الفرنجة والد أعداء المسلمين، وقابلوه عبر الحدود ٧٧٧م فلم يتردد شرلمان في الانضمام اليهم، إذ كان إذ ذاك مطلق اليدين في مشروعاته الحربية خاليا من المشاغل نظرا لخضوع السكسون واعتناقهم المسيحية وهرب زعيمهم ويتكند إلى بلاد الدنمرك ملتجأ إلى أميرها. وتقرر ان يعبر شرلمان الحدود حيث ينضم اليه الاعرابي وحلفاؤه في شمال نهر ابرو معترفين بسلطانه عليهم، وأن عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبي يجند البربر من أفريقية ويعبر بهم البحر إلى الأندلس رافعا العلم الأسود، داعيا الناس إلى الدخول

في طاعة الخليفة العباسي حليف شرملة ، ولو تم للمتآمرين ما بيتوه لعبد الرحمن
لقضوا عليه قضاء مبرما ، ولكن من سعد طالع عبد الرحمن ان طرأ على خطط
المتآمرين ما افشلها . فان عبد الرحمن بن حبيب الصقلي البحر بجيش من البربر
إلى اقليم مرسية قبل ان يجوز شرملة الحدود ، ولما طلب مساعدة الاعرابي أجابه
هذا : ان الخطة المتفق عليها ان يظل في الشمال لمساعدة جيش شرملة ، فأحقق
هذا الجواب عبد الرحمن بن حبيب الفهري الشهير بالصقلي ، ووجه من وقته
جيشه لقتاله فصدده الاعرابي واعاده الى مقاطعة تدمير حيث قتله بربري من اتباعه
المغاربة ، وذلك بإيعاز من عبد الرحمن الداخل امير الأندلس . فلما عبر شرملة
جبال البرانس بعد ذلك ٧٧٧ م كان حلفاؤه قد تفرق جميعهم ولم يبق منهم على
ولائه له غير الاعرابي وحليفه ابو ثور حاكم وشقه وجلندر كونت سردانية وانضم
اليهم الحسين بن يحيى الانصارى من نسل سعد بن عباد الذي استولى على سرقسطة ،
فلما اقترب منها كبر على أهلها أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ونقموا على
الاعرابي سعيه في نصرته المسيحية على الاسلام ، وكبر على الحسين أن يسقط
قدر نسبه وعراقة حسبه ، ولما لم يستطع الاعرابي أن يقنعهم بالانضمام الى شرملة
وكان يخشى ان يسىء شرملة الظن به التقي بنفسه بين يديه ، وعندئذ تجهز شرملة
لحصار سرقسطة . وبينما هو يحاصرها بلغه خبر عودة ويتكند من منفاه وانضمام
قبائل السكسون اليه ونقضهم الصلح المعقود بينهم وبين القوط واكتساحهم
للبلاد حتى ضفة نهر الرين يقتلون ويحرقون ويخربون ، فاضطر شرملة الى الاسراع
في المسير من البر الى الرين ، وبينما هو يجتاز وديان رونسفال المشجرة المحفوفة
بسلاسل الجبال الشاهقة انقض عليه مسيحيو مقاطعة باسك واوقعوا بمؤخرة جيشه
فأنفوها عن بكرة أبيها وجمعوا الاسلاب وفروا هاربين ، وهكذا ختمت المؤامرة

اسوأ خاتم بعد إذ بدأت بالآمال العريضة ، وعادت على من اشتركوا فيها بالوبال ، وحق بهم ما كانوا يعمرون ، وأسرع عبد الرحمن الداخل في انتهاز الفرصة السانحة للقضاء على أعدائه الخائنين ، فزحف عجلا على سرقطة وكر العصاة ، وكان قد عاد إليها الاعرابي فعده الحسين بن يحيى الانصارى خائنا لدينه وقتله في المسجد فلما جاء عبد الرحمن امير الاندلس لحصار سرقطة سلمها اليه الحسين وعفاه عنه عبد الرحمن ، لكنه مالبث ان غدر وثار مرة أخرى فأسلمه اهل سرقطة لعبد الرحمن وهذا امر به فقطعت يده ورجلاه وضرب حتى مات ، ومن سرقطة زحف عبد الرحمن على إقليم الباسك واخضع مكانه وفرض عليهم الجزية ، والتقى بعد ذلك بجيش ابي الأسود بقية العصاة المتآمرة ، وكانت بينهما معركة دموية قتل فيها من اصحاب ابي الأسود الفهري اربعة آلاف كانت اشلاؤهم اقواتا للسماع والنسور ، واسر عبد الرحمن ابا الأسود فأمر بقتله

وهكذا خرج عبد الرحمن من كل حروبه ظافراً منصوراً وأقام لنفسه ملكاً أكسبه رهبة الجانب ، على أنه تعالى في شدته حتى فرق من حوله القلوب ، فن ذلك عزله أبا عثمان عبيد الله ، ونفيه مولاة بدرا إلى الحدود ، وقبضه على زعماء الأمويين وقتلهم لتأمرهم عليه ، وكذلك قتله هزيل بن الصمبل للسبب نفسه ، ولما خشي على حياته من كيد الكائدين كان لا يخرج من قصره معظم أيامه ، وإذا خرج أحاط نفسه بحرس من البربر المرتزقة ، على أن شدته الاضطرابية هذه كانت وليدة ظروفه القاسية ، ولقد أقام دولته بالسيف فانشأ جيشاً عدده ٤٠ ألفاً من البربر والماليك يدين له بالولاء ولكنه كان لا يبالي بمصلحة الشعب ولا بمنفعة البلاد .

فكان حكمه صراعا بين الملكية الاستبدادية وبين العرب الذين لا يميلون

إلا لنظم قبائلهم وعاداتهم الديمقراطية

رأى أبي جعفر المنصور في عبد الرحمن :

وقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال ما قلتم شيئا ، قالوا فعاوية قال لا ، قالوا فعبد الملك بن مروان قال ما قلتم شيئا ، قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفردا بنفسه ، فصر الأامصار وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة ، ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللاله صعبه وعبد الملك ببينة أبرم عقدها .

ولعبد الرحمن شعر رقيق فما قاله يتشوق إلى معاهده بالشام

أيها الركب الميمم أرضي	أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمي كما علمت بأرض	وفؤادى وما لك به بأرض
فارق البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا	فعمى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى مرة في إحدى حدائق قرطبة نخلة منفردة فقال

يا نخل أنت فريدة مثلى في الأرض نائية عن الأهل

هذا ولم يكن تتابع الثورات حاثلاً دون سعيه في ترقية بلاده في الزراعة والعلم وال عمران ، وبلغت قرطبة في عهده شأواً بعيداً في الحضارة والعلم والفلسفة والطب حتى أصبحت منتجع القصاد من طلاب العلوم من أسبانيا ومصر والشام والعراق ، وكانت بها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة وحمامات وفنادق

وبساتين على ضفة الوادي الكبير ، وجوامع ومدارس فأصبحت تضارع بغداد في العظمة والشهرة ، وفي سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦ م شيد عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير الذي تفضل العين في وصف بدائعه ، وأنفق على عمارته ١٠٠ ألف دينار عدا ٨٠ ألف دينار دفعها ثمناً لكنيسة كانت مكانه ، وقيل في وصفه ان به ٣٦٥ طاقة على عدد أيام السنة ، وإن الشمس تدخل كل يوم من طاق ، وأن به تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، ومصحفا من القرآن كتبه عثمان بن عفان

وفاته

ولما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا إلى حضرته الحاحب وقاضي القضاة ووزراءه وغيرهم من وجوه القوم وعمال الأقاليم وأشهدهم على أنه عهد بالولاية بعده إلى ابنه هشام فبايعوه على ذلك ، ومات عبد الرحمن عام ١٧٢ هـ — ٢٨٨ م

الفصل الثاني

هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) هـ (٧٨٨ - ٧٩٦) م

تولى الامارة بعد وفاة أبيه وعمره ٣٣ سنة ، ولقد كان والياً على ماردة عند وفاة والده ، وكان أخوه الأكبر سليمان والياً على طليطلة ، وكان أخوه عبد الله حاضراً في قرطبة وهو الذي صلى على أبيه ثم ذهب الى قصر الامارة مؤملاً أن يقبل عليه كيار القوم ويحيوه بتحيات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد ولما تحقق أن رغبات الأهلين منصرفة عنه الى أخيه هشام ولى العهد رأى من الحكمة أن يجدد البيعة لأخيه ، وكتب اليه ينعي أباه وطلب اليه الحضور الى قرطبة ليتسلم زمام الامر فيها لينهب هو الى ماردة بدلا عنه

أسرع هشام الى مقر الامارة وتسلم مقاليد الحكم في البلاد ، وسار فيه سيرة عمر بن عبد العزيز ، واشتهر بالتقوى والعدل والكرم اذ قضى على الرذائل وعاقب مرتكبيها بأشد العقوبات ، وواسى المرضى وعاون المعوزين وكثيرا ما شارك الأهلين في أفراحهم ومآتمهم فأحبه الناس حبا جما ولقبوه بالعدل وبالرضى وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الاقاليم فيسألون الناس عن سير عماله وحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وكان فوق ذلك حكيما حازما فقمع الفتن ، وصاد الأمل في عصره ، وأنتم بناء الجامع الكبير الذي أسسه أبوه ، وبنى عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بالمباني الشاهقة الفخيمة ، وجدد قنظرتها التي بناها السمع بن مالك الخولاني

النورات في عهده :

أولاً : خروج أخويه . غضب سليمان غضباً شديداً عند ما علم ببيعة هشام إذ كان يطمع في الإمارة لنفسه ، وكتب إلى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة إلى طليطلة ليتفقا على نبد الطاعة وشق عصاها في وجه أخيهما ، واتفق الاخوان أن يستقلا في أقليميهما ويتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالأمير ، فلما عارضا بهما وزير طليطلة غالب بن تمام فيما اتفقا عليه سجنه سليمان ، وعلم الأمير بذلك فأرسل رسولا إلى طليطلة يسأل سليمان عن سبب سجن الوزير فكان الجواب إن جاء بالمسجون وخذقه أمام الرسول ، وقال له :

« قل لمولايك يدعنا نحكم في اقليمينا أحراراً جزاء ما ألم بنا من الضر من أمارته »

فغضب هشام وكتب إلى ولاة الأقاليم وقضاها يخبرهم بخروج أخويه عليه وأمرهم بالمحافظة على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ، وألا يطيعوا لها أمراً ، وألا يسمحوا لها بالابواء اليهم ، ثم جهز عشرين ألف جندي وزحف على طليطلة ، واستعد سليمان بدوره وجمع جيشاً زحف به على قرطبة تاركا ابنه وأخاه ليدافعا عن طليطلة ، والتقى الجيشان بالقرب من حصن بلخ ودارت بينهما معركة دموية رجعت كفة القتال فيها إلى جانب هشام ، فتقدم إلى طليطلة وحاصرها ودافع عنها عبد الله دافع المستميت ولكنه اضطر إلى طلب الصلح عند ما نفدت المؤنة وضعفت عزائم الأهلين ، وقبل هشام الصلح وعفا عن أخيه ، ودخل المدينة ظافراً وأقام أحد أقارب الوزير غالب عاملاً عليها ، وأسكن أخاه عبد الله قصراً في ضواحيها ثم عاد إلى قرطبة ليعد العدة في إخضاع سليمان وكان ذلك ١٧٣ هـ .

جمع سليمان قلول جيشه بعد هزيمة بلخ ونزل على قرطبة واحتل قلعة شقندم فخرج اليه عبدالله بن عبد الملك المرواني وقاتله وأخرجه من القلعة، ففر الى الجبال ثانية وأرسل الى وزير ماردته وكبارها مستنجدا، ولكنهم بدلا من الخروج لمعاوئته خرجوا لمطاردته وطردوه الى أرض تدمير، وفيها حاول أن يجمع الانصار والجند فأرسل اليه هشام جيشا على رأسه ابنه الحكم وكان شابا في مقتبل العمر، وسار الحكم وتقابل مع قوات عمه ونازلها بالقرب من لورقة وبدد شملها وانتصر عليها نصرا مبينا، وفر سليمان ومعه بعض الفرسان الى بلنسية ومنها الى دانية ثم ألقى بنفسه الى جزيرة شقروهي محل حصين، وهناك كتب الى أخيه يطلب الصلح فأجابه اليه بشرط ان يترك الاندلس ويأخذ ماله وستين ألف دينار مصالحة على تركه ابيه، فرضخ سليمان ورحل عن اسبانيا الى المغرب وسكن مدينة طنجة وذلك في اوائل سنة ١٧٤ هـ ٧٩٠ م

ثانيا : الثورة في طرطوشة وبرشلونة :

انهز سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى (بشاغنت من اقليم طرطوشة في شرق الاندلس) فرصة الحرب بين هشام واخويه وثار في وجه الأمير واجتمع حوله خلق كثير وزحف على طرطوشة وامتلكها، وأخرج عاملها يوسف القيسى، فلما بلغ هشام الخبر ارسل الى والى بلنسية امرا بالزحف على سعيد واخراجه من طرطوشة، فزحف وقاتله بالقرب من المدينة وتغلب عليه وقتله ثم استرد المدينة في اواخر عام ١٧٢ هـ ٧٨٩ م

أما في برشلونة فقد خرج فيها مطروح بن سليمان بن يقظان عام ٧٩٠ م والتف حوله نفر كثير، وزحف على سرقسطة وملكها وتغلب على وشقه وأصبح سيد تلك

الجهة ، فبعث هشام أمرا إلى والى بلنسية الجـ يد المسمى عبدالله بن عثمان لينهض لمحاربتة فأطاع الأمر وزحف على رأس قوة كبيرة وقابل الثائر على ضفاف نهر الأبرو وقاتله وانتصر عليه ، وفر مطروح وقد قتل بعد ذلك بيد اثنين من أعوانه فاستراح الأمير من شره . وهدأت البلاد وانتشر السلام في ربوع الاندلس المريية فاستطاع هشام أن يلتفت لمحاربة أعداء البلاد من الفرنج ونصارى الاسبان .

ثالثاً : حروبه الخارجية :

طلب هشام إلى ولاية الأقاليم ووجه القوم في الاندلس القيام إلى الجهاد بخيلهم ورجلهم وسلاحهم ضد أعداء البلاد ، فلبوا دعوته وجمعوا الجيوش في أوائل ١٧٥ هـ ، فأخذ يرسل هذه القوات بعضها إلى الحدود لرد البلاد التي استولى عليها هؤلاء الاقوام ، وبعضها إلى داخل بلادهم للاستيلاء عليها ، وفي سنة ١٧٦ هـ زحف أبو عثمان إلى إلبة والقلاع والتقى بالأعداء وهزمهم وقتل عدداً كبيراً منهم ، وكذلك زحف يوسف بن بخت على جليقية وحارب برمود ملكها وهزمه ، وفي السنة التالية أرسل جيشاً عمر ما تحت قيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد إلى أرض الفرنجة لمحاربة سترلمان الذي كان مشغولاً بحاربة اللمبردين وقتئذ ، ودخل القائد العربي اقليم سبتانيا ومنها تقدم إلى البلاد الفرنسية حتى وصل إلى مدينة نربونة واستولى على كل ما قبله من المدائن ، ثم جاس البلاد شهوراً يخرب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرون أمامه طالبين النجاة ، ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيسة ، وبلغ خمس هذه الغنائم الذي كان باسم الأمير ٤٠ ألف مثقال من الذهب العين ، وقد فرح أهل قرطبة بهذا الفوز المبين ، وحبس

الأمير الحُصْن على بناء الجامع الكبير في قرطبة وهذه الغزوة من أشهر غزوات المسلمين

هذا وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ١٧٩ هـ « أن هشاماً صاحب الأندلس سير جيشاً كشفوا عليه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى أستورقة ، وكان إدفونش ملك الجلالة قد جمع وحشد ، وأمدّه ملك البشكنس وهم جيرانه فصار في جمع عظيم ، فاقدم عليه عبد الملك فرجع إدفونش إلى جليقية وتبعهم عبد الملك يقفوا أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم وأوغل فيها يغنم ويقتل ويخرب ورجع سالماً »

وكان قد سير هشام جيشاً آخر من ناحية أخرى فدخلوا أيضاً على ميعاد من عبد الملك فخرّبوا ونهبوا وغنموا ، فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فذالوا منهم وقتلوا نفراً من المسلمين وعاد الباقون سالمين .

ذكر مؤرخو الفرنج هذه الغزوة في حوادث سنة ١٧٨ هـ ٧٩٤ م ، وذكروا فيها أن المسلمين خسروا وهم راجعين مثقلين بالفتائم خسارة كبيرة ، وقتل عدد من شجعائهم منهم يوسف بن بخت الذي كان يقود فرقة من جند المسلمين ، واسترد النصراني الغنائم التي كانت معهم ، ويظهر أن هذه الغزوة بدأت في أواخر سنة ١٧٨ هـ وانتهت في السنة التالية وهي آخر غزوة غزاها هشام

ازدياد نفوذ الفقهاء في عهده :

اشتهر هشام بالتقوى والصلاح كما تقدم ، فقرب إليه الفقهاء والادباء وقوى نفوذهم وكثر تدخلهم في مصالح الدولة مما أدى إلى صراع عنيف بين السلطين الزمنية والدينية بعد وفاته مما ستفصله بعد .

وقد نبغ في الشعر في عصره عامر بن أبي جعفر ، واشتهر بالفقه زياد بن عبد الرحمن الذي رحل الى الشرق لينتقى الموطأ عن مالك بن أنس ، ثم عاد إلى الأندلس فأدخل هذا المذهب فيها تحت كنف الأمير ورعايته ، وكان مذهب الأوزعى هو السائد في البلاد قبل ذلك

وفاته :

في عام ١٧٩ هـ ٧٩٥ م جمع هشام في القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلنهم بأن ابنه الحكم هو ولى العهد بعده ، ثم مرض هشام في أوائل عام ١٨٠ هـ ومات في شهر صفر من السنة عينها بعد مرض قصير ، وحكمه لم يدم إلا سبع سنين قمرية وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً .

الفصل الثاني

الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) (٧٩٦ - ٨٢٢ م)

تولى الملك بعهد من أبيه في شهر صفر عام ١٨٠ هـ (إبريل سنة ٧٩٦ م) وكان في السنة الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اختلف المؤرخون في وصفه ، فمنهم من قال إنه كان عالما فطنا فصيحاً شاعراً صارماً حازماً متكبراً سريع الغضب قاسى القاب ، ومنهم من قال إنه كان طاعياً مسرفاً ومستهنراً ، له آثار سوء قبيحة ، واليك أعماله لتتعرف منها أى الصفات تصدق عليه

الاضطرابات الداخلية في عهده :

اختر الحكيم عبد الكريم بن عبد الواحد كبيراً لوزرائه (حاجباً) لأنه كان رفيق صباه وكان يعجب به لأمانته وشجاعته ، ولكنه ما لبث أن واجهته الاضطرابات من كل جانب فهض لأخمادها بكل قوة وحزم

أولاً : خروج عميه سليمان وعبد الله :

كان سليمان يعيش في طنجه منذ عام ٧٩٠ م كما مر بنا ، وفيها كثرت أتباعه وازدادت ثروته ، وأصبح في تلك الأقاليم نافذ الكلمة مهيب الجانب ، وعاش عبد الله بضواحي ظليطلة بعد أن تصالح مع هشام ، وفي تلك الجهة كون له حزباً قوياً على رأسه عبيد الله بن حمزة ، والتزم الاخوان الهدوء والصمت طوال المدة الأخيرة من عصر الأمير هشام ، فلما توفى واعتلى ابنه الحكم كرسى الإمارة ظننا أن الفرصة قد سنحت لاغتصاب العرش من ابن أخيهما ، ونهض عبد الله

لعمل وأسرع بترك الاندلس لمقابلة سليمان بطنجة ، وهناك اتفق الاخوان على منازعة الحكم واثارة الاضطرابات في أنحاء أسبانيا ، واعتمدا على محالفة شرلمان لتحقيق مآربهما ، وتنفيذا لهذه الخطة سافر عبد الله إلى مدينته إكس لاشابل عاصمة شرلمان وقابل هذا العاهل العظيم عام ٧٩٧ م ، وكشف له عن نيته فرحب بالفكرة ولبي الطلب من فوره إذ رأى من وراء قيام الثورة في بلاد الاندلس العربية تحقيقا لمطامعه القديمة ، وهي اضعاف المسلمين وكسب الشهرة والقوة بين حاكوك النصرانية نتيجة لذلك .

استدعى شرلمان ابنه لويز من ولاية أ كوتين ، وأرسل إلى الفونس ملك استورية وجليقية واتفق معها على امداد عبد الله بالقوات التي يحتاج اليها ، وفي الوقت نفسه يزحف كل منهما على أملاك المسلمين بالاندلس من جهة الشمال والشرق ، وقامت الثورات في عدة جهات من اسبانيا في آن واحد ، واستطاع عبد الله أن يستولى على ابواب وقصر طليطلة في خريف سنة ١٨١ ٧٩٧ م ، وزحف سليمان على رأس جيش كبير على البلاد من جهة الجنوب ، واجتاز لويس بحيشه الثغور واستولى على تربونه وجيرونه ، وهدد مدن الخلد الشرق وخضعت له بنبلونه ووشقة ولاردة ، واعلنت برشلونه الثورة وسلمها الثوار الى رسل شرلمان ، وبلغت أخبار هذا العصيان مسامع الامير فلم يفقد توازنه ونهض بقلب ثابت لمكافحة الثورات ، وأمر بتعبئة الجيوش ووجه بعضها لمقاتلة سليمان وصدده ومنعه من الاتصال بقوات أخيه عبد الله ، وقاد هو بنفسه جيشا وزحف به على طليطلة ثم ترك قيادة هذا الجيش إلى قائد قدير يسمى عمروسا قائد طليطلة ، وأنجه على رأس قوة أخرى نحو الحدود ، وحارب الفرنج واسترد وشقة ولاردة وبرشلونه وجيرونه ثم واصل زحفه ودخل ارض فرنسا ، واستولى على تربونه وفنك بالأفرنج فتسكا

دريعا واسرو غنم وفيرة ورجع إلى قرطبة ، ودخلها دخول الظافر ولقب
بالمظفر

التفت بعد ذلك إلى محاربة عمه حول طليطلة وضيق عليهما الخناق فقرا
امامه الى ارض تدمير عام ١١٨٣ هـ ، فسير عليهما الجيوش وظلت الحرب قائمة
بينهما لمدة عام آخر ، وظهر في اثناهما سليمان واخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها
شجاعة ، واخيرا انتهت هذه الحروب الطاحنة بانتصار الحكم على عمه اذ قتل
سليمان في احدى المعارك عام ١١٨٤ هـ ، وطلب عبد الله الصلح فقبل الحكم منه
ما طلب وصالحه عام ١١٨٦ هـ ، واجرى عليه مرتبا يتناسب ومركزه الاجتماعى
وبذلك انتهت هذه الثورة

اما في طليطلة فقد نجح عمرو بن قنبر في القضاء على الثورة فيها في سنة ١١٨٤ هـ
وقبض على زعيم الثوار عبيد بن حمزة وقطع راسه وارسلها الى قرطبة ، واقام
ابنه يوسف محافظا عليها ، واسرع بالقوات التي كانت معه لمعاونة الامير في حروبه
ضد عمه

إغارة الفرنج الثانية :

انتهز الفرنج فرصة اشتغال الحكم باخماد ثورة عمه وقرر لويس حاكم
اكوتين إرسال حملة على الاندلس في ٧٩٨ م ، وزحفت جيوش الفرنجة واستولت
على جيرونة وغيرها من المدائن وأقامت قلاعاً قوية على الحدود ، ثم نزلت على
اسبانيا في سنة ٨٠٠ م واتجهت نحو برشلونه ، ونهض زيد محاقظها واستقبله باجلال
وتعظيم ولكن لم يسلمه المدينة ، فزحف لويس على لاردة ووشقه ، وهاجمها وأخذها
ثم خرب عدة قصور وقلاع على الطريق بين لاردة ووشقة ، ولما جاء الشتاء رجع إلى

ببلاده ليستعد للزحف ثانية على برشلونة ، وفي السنة التالية زحف على رأس جيش كبير وحارب المسلمين ودافع أهل برشلونة عن مدينتهم دفاع المستميت ولكن الفرنج تغلبوا عليهم واستولوا على المدينة عام ٨٠١ م ١٨٥ هـ . بعد حصار دام سبعة أشهر

نهض الحكم لمحاربة الفرنج وحلفائهم من زعماء المسلمين وسار بنفسه إلى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد بن مفرج واسترد مدينة نرقسطة ، ثم توجه إلى مدن الحدود الأخرى ليستردها وأخذ تطيلة وأقام يوسف بن عمرو قائدا له وكان قد ترك طليطلة بسبب ثوران أهلها في وجهه لقسوة وقلة درايته بأساليب الحكم ، ثم تقدم الأمير واحتل بنبلونه ونزل على شاطئ نهر الابرو واستولى على وشقة ، ثم سار إلى طرقونه ودخلها وطاردهم لولا قائدها الناصر وتغلب عليه وقطع رأسه في ١٨٨ هـ ٨٠٤ م

أما برشلونة فلم يستطع الاستيلاء عليها بسبب ضعف قوته التي نالها التعب والاعياء نتيجة للحروب الطويلة التي اشتبكت فيها مع الثوار المختلفين ، وقد رجع الأمير إلى قرطبة في أوائل سنة ١٨٩ هـ ٨٠٥ م

علاقته بالادارة :

استطاع ادريس ان يفر من وجه الهادي واسس له امارة ببلاد المغرب واتخذ مدينة ويلي عاصمة له ، فأرسل اليه الحكم وفدا يهنئه بالامارة وطلب اليه التحالف على من يناوئهما فقبل الوفد بالخفاوة والاحلال ، وعقدت المعاهدة بين الأميرين .

مذبحة الحفرة :

رجع عمروس إلى طليطلة وحكمها من قبل الأمير بعد أن ثارت في وجهه لابنه يوسف ، وعزم على التخلص من زعمائها وكبار القوم فيها ، ودبر لذلك مؤامرة أحكم تنفيذها ، إذ انتهز فرصة زحف جيش على أسبانيا الشرقية على رأسه عبد الرحمن بن الحكم لأخضاع الثأرين في تلك الجهات ، وطلب إلى الأمير الشاب أن يمرج على المدينة ليكرمه فيها ، فقبل الأمير الدعوة وتوجه إلى طليطلة لحضور المأدبة ، وأوعز عمروس وحرسه بأن يقبضوا على الزعماء المدعوين ، ويأخذوا كل مدعو ويقودوه إلى حفرة حيث تقطع رقبتة ويرمى بها فيها ، وقد نفذ الحرس أوامر سيدهم وقتلوا بهذه الطريقة الشنيعة عددا كبيرا من وجوه طليطلة وأشرافها ، فكانت مذبحة عظيمة أراحت الحكم فترة من الزمن من ثورات طليطلة المتكررة ، ولكنها تركت أثرا سيئا في نفوس الطليطليين وترقبوا الفرصة السانحة للانتقام من أمير قرطبة ، وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم عما إذا كان الأمير الشاب قد علم بأمر هذا التدمير قبل وقوعه أم عرفه بعده ، وغضب على عمروس وانتقد غدره ، وستقوم طليطلة بثورة في عصر عبد الرحمن القادم لينأروا لمن دبحوا على يده في عصر أبيه .

مؤامرة قرطبة :

أورد دوزي المؤرخ الشهير خبر هذه المؤامرة في حوادث عام ٨٠٥ م على الصورة الآتية :

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون وبعض الأعيان على خلع الحكم وتولية ابن شماس ابن عم الأمير عرش أسبانيا العربية ، وفأبحوه في

الأمر فطلب اليهم أن يعرفوه أسماء أنصارهم حتى يرى إذا كان من الممكن الاعتماد عليهم ، فأجابوه إلى ما طلب ووعده بأن يعودوا اليه في وقت معين ، ولما خرجوا من عنده أسرع لمقابلة الحكم سرا وأبلغه الأمر ، فغضب الحكم وارتاب في الأمر وثار في وجه ابن شماس ، فسأله هذا أن يرسل معه نفرا ممن يثق بهم ليسمعوا أسماء المتآمرين في الموعد المضروب ، فأجابه الحكم إلى ما طلب وأرسل اليه كاتب سره وخادمه الخاص ، وفي الليلة المعينة ذهب من ائتمروا إلى ابن شماس وسألهم عن أسماء باقي المؤتمرين فذكروا له الأسماء ، وكان كاتم السري يكتب كل اسم يذكر من وراء ستار ، واستمر الكاتب يكتب حتى وقعت منه حركة أفهمت الحاضرين أن ابن شماس غدر بهم فقاموا مذعورين وخرجوا فارين وفر يحيى وزميله عيسى إلى طليطلة ، وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين من المتآمرين وصلبتهم

ذكر بعض المؤرخين خبر هذه المؤامرة على صورة أخرى وفي تاريخ آخر فقال كندى ورومى أن من صلبوا كانوا ثلثمائة وأن الحادثة وقعت عام ٨٠٦ م و ١٩٠ هـ وأن من كانوا اختاروه ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وانه هو الذي أفشى سرهم ، وسردها ابن الاثير في حوادث عام ١٨٧ هـ وقال إن عدد المصلوبين اثنان وسبعون ، وأن محمدا بن القاسم القرشي المرواني عم هشام بن حمزة هو الذي أخبر الحكم بأمر المؤامرة

ثورة الربض:

قام الشغب في قرطبة أو الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية في عصر الحكم بسبب اثارة جماعة الفقهاء لأهل قرطبة على أميرهم ، إذ تقموا منه انهماكه

ولذاته وانصرافه إلى الصيد والقنص وتركه الصلاة وبعده عن مجالس العلم والفقهاء
وثار الرضا على الأمير وعرضوا به ، وكانوا ينادون عند انقضاء الاذان « الصلاة
يا محمور الصلاة » وشافه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالا كف ، وتعرضوا
لجنده بالأذى والسب ، فحضر الحكم قرطبة وعمرا سوارها وحفر خنادقها ، واستكثر
من المماليك ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ، وأخيرا هاج الرضا
وهجموا على جند الأمير وتغلبوا عليهم وأحاطوا بالقصر ، فتنزل الحكم من أعلاه
ولبس سلاحه وركب وحرص أنصاره فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا ، وأمر ابن
عمه عبد الله أن يخرق السور ويذهب مع نفر من الجيش إلى مساكن الرضا
ويشعل النار فيها ففعل ، وارتد الرضا لاطفاء الحرائق فطاردهم الحكم وقتل منهم
عددا كبيرا ، وأقام النهب والقتل والاحتراق والتخريب في أرباض قرطبة ثلاثة
أيام ، ثم طلب إليه حاجبه عبد الكريم أن يعفو ويمهل من بقي ثلاثة أيام للخروج
من البلاد ، فخرج عدد كبير من الفقهاء وطلبة العلم والرعا من الأندلس إلى
أفريقية ، وذهب بعضهم إلى بلاد الادارة في المغرب الأقصى ، وذهب الآخرون
وعددهم خمسة عشر ألفا إلى مصر ، وكانت مصر إذ ذاك نائرة ضد المأمون الخليفة
العباسي ، فانهز الأندلسيون الفرصة ونزلوا بالاسكندرية وامتلكوها وظلوا بها
حتى عام ٨٢٦ م ، وفي تلك السنة تغلب عليهم قائد المأمون عبد الله بن طاهر بن
الحسين وأخرجهم من الاسكندرية فذهبوا إلى كريت ونزلوا بها وظلوا فيها حتى
عام ٨٦١ م حين فتحها الاغريق .

خرج الحكم من تلك الثورة فائزا وبذلك انتصرت السلطة الزمنية على
السلطة الدينية ، وعفا الحكم عن يحيى بن يحيى وعن طالوت وعن بقي من الفقهاء
وقر بهم اليه وأجرل لهم العطاء ، هذا وقد وقعت هذه الحادثة في سنة ٢٠٢ هـ

علاقته بحاكم مارد:

ولى الحكم ابن عمه وزوج أخته المسمى أصبغ حكم مدينة ماردة ، فاختلف أصبغ مع وزيره وعزله ، فغضب الوزير المعزول وتوجه إلى قرطبة وقابل الأمير وأخبره بأن أصبغ يتحين الفرصة للاستقلال بمارد ، فهاج الحكم وأمر بعزل ابن عمه وتولية الوزير مكانه ، ورجع الوزير إلى ماردده يحمل أمر التولية والعزل إلى أصبغ فلم يدع هذا إلى الأمر ، وكتب إلى الحكم يعتب عليه مماع الوشاية وطرده له من عمله كما تطرد السوق ، فغضب الحكم لعصيان أصبغ لأمره وأرسل قوة من الفرسان لإخراجه من المدينة وتنصيب الوزير فلم تستطع ، فذهب الأمير بنفسه إلى المدينة وعزم على اقتحامها بالقوة ، وعندئذ تمكنت كنززوج أصبغ أخت الحكم من مقابلة الأمير وأفهمته حقيقة الأمير وأقنعته ببراءة زوجها ، فاقنع الحكم ودخل المدينة مع أخته وأقام في ضيافة ابن عمه أياما ، ثم رجع إلى قرطبة عندما بلغه خبر المؤامرة على خلعه كما مر بنا

الحروب مع نصارى الاسباني والفرنج :

ثار نصارى الشمال في وجه الحكومة الاسلامية وأغاروا على الحدود ، فأرسل الحكم قواده في سنة ١٩٠ هـ ٨٠٦ م إلى حدود جليقية لصد هذه الاغارات ونجح القواد في مطاردة نصارى الاسبان ، وطلب الفونس امير تلك الجهات الهدنة لمدة ثلاث سنين فأجيب إلى طلبه ، وفي السنة التالية خرج حزم بن وهب في باجة وزحف على لشبونه فأرسل إليه الحكم جيشا أذله واضطره إلى طلب الأمان . اما الفرنج فقد انتهزوا اشتغال الحكم بقمع الاضطرابات الداخلية واغاروا على على املاك المسلمين ، واستولوا على جزء عظيم منها بين جبال البرانس ونهر ابرو ،

وفي أوائل عام ١٩٢ هـ حاصر لويز أمير أكتاينا مدينة طرطوشة فزحف عبد الرحمن بن الأمير على رأس جيش لصدده وانضم اليه جيش من بلنسية وحارب المسلمون الفرنج وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ، ورفعوا الحصار عن المدينة ، وتقهقر لويز إلى ولايته وكان ذلك عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م)

وفي تلك السنة جدد نصارى الاسبان في جليقية اغاراتهم على أملاك المسلمين فخرج اليهم الحكم وصددهم ثم عاد إلى قرطبة ، وترك قواده في ميدان القتال تحارب هؤلاء النصارى ، ثم رجعت ماردة إلى العصيان في المدة بين ١٩٤ هـ ١٩٦ م فزحف الحكم عليها وأخضعها وأخرج اصبع منها وأسكنه قرطبة ولكنة اضطر إلى محاربة الفرنج الذين عادوا إلى الثغور وأغاروا عليها وقتلوا ونهبوا وسبوا ، وفي عام ١٩٦ هـ سار إلى بلاد الفرنج وافتتح عدة حصون وخرب البلاد وقتل عددا كبيرا من الرجال وخلص كثيرا من أسرى المسلمين ومن بينهم امرأة كانت قد استغاثت به عند ما أسرها الفرنج وبلغه خبرها من عباس الشاعر ، فلما خلصت المرأة من الأسر قالت للعباس « والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره » فارتاح الحكم لقولها وأنشد :

ألم تر يا عباس أنى أجبتها على البعد اقتاد الخيس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

ثم رأى الحكم أن يضع حدا لتلك الاغارات فارسل بعثة إلى شرلمان تطلب الصلح ، وفعلوا تم الصلح بين الفريقين في أواخر عام ٨١٠ م في مدينة اكس لاشبل ، ولكن لم يدم الصلح طويلا وتجدد العداء بين الفرنج والمسلمين في السنة التالية وذلك بسبب الدسائس الكثيرة التي كان يقوم بها بعض الطامحين من ولاة الأقاليم المسلمين ، وفي سنة ٨١١ م تأهب لويز بن شرلمان لأخذ طرطوشة ،

وفي السنة التالية زحف عبد الرحمن بن الحكم على جيرونة وغزا أرض تربونة وقاتل أهلها وعاد معه كثير من الأسرى والغنائم

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث عام ٢٠٠ هـ أن الحكم جهز جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالأندلس (نصارى جليقية) فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخرّبها ونهبها وهدم عدة من حصونها، فلما رأى ملكهم ما فعله المسلمون ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصرين بهم فاجتمعت إليه النصرانية من كل أوب — ثم اقتتل الفريقان قتالاً شديداً عدة أيام ثم هطلت الأمطار وطفى النهر الذي كان يفصل بين المتقاتلين وتعب الفريقان فقفّل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذى القعدة «

هذا وقد جاء في بعض الروايات أن عبد الكريم جرح برمح ومات متأثراً بجروحه فأخذ جيشه في الهرب بعد أن دام القتال ثلاثة عشر يوماً

ولاية العهد :

أظهر عبد الرحمن بن الحكم مهارة فائقة في إدارة الأمور التي عهد بها إليه أبوه كما أنه أظهر بسالة وشجاعة في الحروب التي تولى أمرها ضد الخارجين والشائرين على أمانة قرطبة فجمع والده الأمراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والسراة والقواد وعهد إليه أمامهم بولاية الأمر من بعده ؛ فارتضوه جميعاً وحلفوا له بيمين الطاعة وكان ذلك في يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور، ومن ذلك الوقت سمي ولي العهد

وفاة الحكم :

قال ابن خلدون « توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، وهو أول من جند بالاندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشي ، وارتبط الخيول على بابه ، وأخذ المال بك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والعباد والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالاندلس . »

الفصل الثالث

عبد الرحمن الثانى (الاولى) (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) (٨٢٢ - ٨٥٢ م)

صار الية الملك بعهد من أبیه ثم لأخيه المغيرة من بعده ، وكان مولده بطليطلة سنة ١٧٦ هـ

تجلت عظمة الملك بالآندلس فى عصر عبد الرحمن الثانى إذ اتخذ من أبهة العباسيين مثلاً فجعل له حاشية ، وجمل قرطبة وبنى مساجد وقصوراً ، وأنشأ حدائق وبساتين ، وسير اليها الجداول من أعالي الجبال ، وشجع الأدب وأعطى الشعراء وكان رحماً برعيته نقى السيرة والسريرة ، جعل أمر ملكه لأربعة : فقيه وهو يحيى ونعرفه فيما مر بنا ، وموسيقى يدعى زرياباً ، وجاريته طروب ، وخصى اسمه نصر : جعل عبد الرحمن ليحيى أمر القضاء والنظر فى كافة الأحوال الدينية ، فأصبح بين العلماء وبين طبقات الشعب على اختلافها رفيع المنزلة ذا نفوذ وسلطان ، له أن يعين أو يعزل من شاء من القضاة ، وكان قامياً فهابه الناس وخافوه . ولم يكن زرياب الموسيقار واسمه (على بن نافع) أقل نفوذاً من يحيى ، وقد أتى إلى الأندلس من بغداد سنة ٢٠٦ هـ ، وكان قد تعلم فن الموسيقى على اسحاق الموصلى وقيل إبراهيم فنبغ وذهب به معلمه مرة إلى الرشيد فقناه .

يأبى الملك الميمون طائره هرون راح اليك الناس وابتكروا
فطرب الرشيد كثيراً فخاف الموصلى منافسة تلميذه له ، فخبره بين أمرين
إلما أن يبقى فى بغداد فيعمل على قتله ولولا فى حتفه من جراء ذلك . وإلما أن

يخرج إلى أرض بعيدة وفي هذه الحالة يمده بما يحتاجه في سفره من مال وغيره ،
ففضل زرياب ثأى الأمرين ، وسار إلى أفريقيا حيث وصله كتاب من الحكم
يستدعيه إلى قرطبة فقصدها ، وقبل وصوله علم بموت الحكم فتردد في الذهاب ،
ثم دخلها في عهد عبد الرحمن الأوسط فأكرم مثواه ، وجعل له مائتي دينار شهريا
وألف دينار يوم عيد الفطر ومثلها في عيد الاضحى ، وخمسائه في منتصف الصيف
ومثلها في أول المحرم ، والواقع أنه نال رضا عبد الرحمن فكان نديمه يقص عليه
الأخبار ويروى له عجائب البلدان ، وغير زرياب بعض عادات القوم فجعلهم
يقصون شعرهم وكانوا يسدلونه على أكتافهم ، وحجب اليهم استعمال كوبات
الزجاج بدل الكؤوس الذهبية والفضية ، وأرشدهم الى تغيير ملابسهم مع تغير
الجو في الفصول ، فصارت له مكانة سامية ، وعد بين فلاسفة وشعراء وقواد
وأمرأه وقته ، وكان زرياب فطنا نبيا فلم يتدخل في السياسة أبدا ، وتركها
للسلطانة طروب وأصلها من نافارا (نبرة) والخصى نصر . أما طروب فكانت
امراة ذات أنانية تميل الى الدس جشعة في حبها للمال ، ولم يكن في قلبها موضع
للرحمة ، وكان نصيرها في أعمالها خصيا شاركها في صفاتها وهو من أب اسباني
وكان لا يتكلم العربية بمقت المسيحية والمسيحيين وفيما أوردناه الكفاية لوسف
الحالة في دار الملك في قرطبة .

الثورات الداخلية في عهده :

(أولا) في أثناء ذلك كانت البلاد تسير في طريق الفوضى وقد اتتبتها
الحروب الداخلية ، فكانت الحرب قائمة لمدة سبع سنوات بين البينيين وبنى معد
في مقاطعة مرسية ، وكان الأمير يرسل القواد بالجيش ليزيلوا الشقاق المصنوع بين

بين الفريقين ويكفوهم عن القتال ، فكان إذا جاء قائدا أميري يسكنون وإذا رحل يهبون .

(ثانيا) ثورة ماردة :

كان لنصارى المدائن العظيمة في الاندلس ارتباط بأهل أوروبا بالآن كثيرين منهم كانوا يسافرون الى فرنسا وألمانيا وغيرهما من بلدان أوروبا للتجارة ، وكانوا عند ما يحتلطون بأقوام تلك البلدان يبالغون في سرد الروايات التي تدل على سوء معاملة الحكام من العرب لهم ، فتحرك لويس ملك فرنسا عطفًا على هؤلاء النصارى ، وأرسل كتابا عام ٥٢١٣ (٨٢٨م) الى ماردة يحرضهم على القيام في وجه الحكومة الاميرية ويمدهم بالمساعدة في ثورتهم ، وقد صادف هذا الكتاب هوى في نفوس الاهلين لما كانوا يلقونه من القسوة على يد عمال الامير ، فهبوا بالثورة وقادهم محمود بن عبد الجبار الذي كان جابيا في عهد الحكم وفصل من وظيفته في أوائل عصر عبد الرحمن بسبب إنضمامه الى ثورة عم أبيه عبد الله ثم هجموا على بيوت العمال ونهبوا وخربوا وقتلوا بعدد كبير منهم ، وعلم الامير بخبر الثورة فأرسل الى عبد الرؤف بن عبد السلام والي طليطلة أمرا بالزحف على ماردة وقمع الثورة ، فأطاع الوالي الامر ، وزحف على المدينة الثائرة وحاصرها وخرب ضواحيها وأما كن النهضة بها ، فكتب له الامير بأن لا يتمادى في التخریب حتى لا يزيد نار الحقد في قلوب الثائرين ، وقد استمر الحصار زمنا طويلا ساءت فيه حال المدينة الى درجة كبيرة ، وقرر عقلاؤها أن يفتحوا أبواب المدينة ، وأرسلوا الى القائد نفرا يطلبون اليه الدخول في ساعة معينة من الليل ، ودخل عبد الرؤف المدينة ، وطارد زعماء الثورة وقتل عددا عظيما منهم ، ثم قادى بالامان سنة ٥٢١٣ هـ ،

وقد تمكن عدد من قواد الثورة من الفرار ومنهم محمود بن عبد الجبار الذي فر إلى جليقية ، ولكن الثوار عادوا إلى ثورتهم بعد أربع سنوات ، فخرج إلى المدينة الأمير بنفسه ولما وصلها أراد ألا يدخلها سافكا للدماء ، فأمر جنوده أن يعلقوا في سهامهم رقما كتبوا فيها إن الأمير يعفو عن الثائرين اذا فتحو أبواب المدينة ما عدا زعماء الثورة ، ونجحت المناورة وفتح الثوار أبواب المدينة ، ودخلها الأمير وجنده وفر محمود بن عبد الجبار الذي كان قد عاد إلى المدينة وقاد الثورة ، وظل خارجا على الأمير في جهات أخرى حتى قتل عام ٢٢٥ هـ

ثالثا — ثورة طليطلة :

وثورة طليطلة التي نحن بصدها ترجع إلى أيام الحكم في دورها الاول والثاني وذلك أن أهلها هدموا الحصن الذي كان بناء عمروس ، فسار اليهم الحكم وأخذهم على غرة وأحرق بيوتهم ، فلما كانت امارة عبد الرحمن جددت طليطلة الثورة بزعامه هاشم ، وطرد جند عبد الرحمن الثاني من المدينة (٨٢٩ م) وأحرق بيوت ومزارع المسلمين بها ، وقوى أمر الثورة بانضمام الكثيرين اليه من الجهات المجاورة فأمر عبد الرحمن الثاني عامله على الحدود محمد بن وسيم باخضاعها فهزم ، وظل الثوار منتصرين سنة كاملة حتى أرسل المدد فهزم الثوار وقتل زعيمهم هاشم وفي عام ٨٣٤ م ثارت طليطلة للمرة الرابعة فذهب اليها الأمير أمية فهزمه وأرادوا أن يقتفوا أثره وكان أعداهم كميناً فخرج عليهم الكمين وكان يقوده ميسرة فلاقوا هزيمة منكرة ، غير أن هذه الضربات المتتالية لم تزعج أهل طليطلة عن عزمهم على نيل استقلالهم ، فاذا كان عام ٨٣٧ م حاولوا للمرة الاخيرة تحقيق أمانهم ، فسار اليهم الوليد أخو الأمير وحاصرهم حتى كادوا

يموتون جوعاً ، ولما لم يسلموا هاجمهم واستولى على مدينتهم عنوة في ١٦ يناير سنة ٨٣٧ م ، وأقام حصن عمروس ثانية وأخذ الرهائن إلى قرطبة وهكذا فقدت طليطلة استقلالاً ظلت تحلم به مدة ثمانى سنوات .

رابعا - ثورة قرطبة أو حركة الاستشهاد :

أقام بقرطبة وفيما حولها كثير من المسيحيين المتعلمين ، وكانوا آمنين على حياتهم وأموالهم لهم حرية العبادة ، والتحق بعضهم بجيش العرب ، وشغل آخرون وظائف أخرى بقصر الامارة ، فطاب لهم العيش وتعلموا العربية ، وأجادوها وحفظوا أشعار العرب وفلسفتهم ودرسوا كتبهم الدينية ، وشغلهم هذا عن لغة قومهم وعبادتهم غير أن فئة قليلة منهم ظلت نار الحقد والتعصب الدينى تتأجج فى صدورهم ، وعز عليهم أن يروا أجمل مدتهم فى يد الاسلام ، ولم تاقف نفوسهم إلى النزوح إلى الشمال حيث المسيحية فى الاستقلال ، وزاد من كراهيتهم بعض الأوامر الاستثنائية التى كان يصدرها الأمير من وقت إلى آخر ، وشجعهم القس على موقف العداء نحو الاسلام ، وكان يولوجيوس ألام عداً (وتجدينا أبعد من أن ندس هذه الصفحات بنقل ما كتبه هذا القس عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم) وجملة ما كان يتدمر منه المسيحيون سوء معاملة الرعاى لهم ، فتذكروا أيام كانت تدق النواقيس فى الكنائس . وكانت للمسيحية الكلمة الأولى .

ودفعهم موقفهم هذا من حيث تعصبهم الدينى وتذكرهم بمجد المسيحية فى الأندلس قبل ظهور الاسلام بها واستهزاء العرب بهم إلى أحداث الفتن فى الجهات الجبلية ، وتسكين عصابات تعكر صفو الأمن فى داخل البلاد ، ولما لم يستطيعوا ذلك فى قرطبة نفسها عمدوا إلى تضحية أنفسهم وسموا أنفسهم الشهداء

متبعين خطوات المبشرين الأولين ، وما لقيه هؤلاء من جراء نشر المسيحية في بداية ظهورها ، وقاد تلك الفئة شخصان يولوجيوس والفارو وثانيهما من أثرياء قرطبة ، وكانت تعيش بهذه المدينة فتاة تدعى فلورا وكانت لأب مسلم مات في حادثة منها ، فكفلتها أمها المسيحية ، وطبعاً اعتنقت المسيحية بحكم الوراثة عن أمها ، وتذرت بها وتعصبت لها مما جعل أخاها المسلم يتدخل في أمرها ويمنعها عن الذهاب إلى الكنائس ، ورغم هذه الرقابة كانت تذهب سرا إليها ، وصارت على رابطة دينية وطيدة بالقس يولوجيوس ، ومما ثبت في نفسها أن المسيح لا يرضى عنها ما دامت تخفي حقيقة دينها فعرزمت على إعلان مسيحيتها فهربت مع أخت لها ، واختفت بين جماعة من المسيحيين

ثم اضطرت للعودة إلى بيت أخيها وصارحته أنه لن يستطيع تغيير عقيدتها وانتهى به الأمر أن ساقها إلى القاضي فأنكرت أنها يوما ما كانت مسلمة ، وأعلنت أنها لا تعرف غير المسيحية ديناً ولا تعترف بغير المسيح إلهاً ، فأمر القاضي بجلبها رحمة بها وشفقة منه عليها عليها تنوب إلى رشدها ، وقبل أن تهرباً من جروحها هربت ثانية من بيت أخيها وآواها مسيحي صديق لها ، وأصبحت على اتصال بيولوجيوس وكان يقدسها لعلو همتها وذكائها وريعان شبابها وندورة جمالها ، ثم خرجت من قرطبة وتوارت عن الأنظار ، وفي عام ٨٥٠ م تجرأ قى يدعى برفكتوس على الطعن في الدين الاسلامي وفي نبي المسلمين جهاراً فحُكم أمام القاضي فأمر بأعدامه . وحدد نصر يوم الاعدام واختار لذلك أول يوم عيد الفطر وقبل غروب الشمس نفذ حكم الاعدام ولاقى المجرم حتفه بكل ثبات بعد أن أكثر من اللعنات على الاسلام والمسلمين عامة ونبيهم خاصة ، وعد المسيحيون قتيلاً بين القديسين ومما زاد من حسن ظنهم بقديسهم أن غرق اثنان من المسلمين يوم

بالاعدام ، وان نصرا لاقى منينه ولم تمض سنة على ذلك الحادث .

ولهذا الظرف نوجز كيف كانت نهاية نصر فنقول : — انها كانت جزاء خيانتة لسيدة وذلك أن طروب أوعزت اليه أن يساعدها على اخلاء عرش الاندلس لابنها عبد الله بقتل منافسه أخيه لأبيه محمد وبقتل زوجها نفسه فحصل نصر على سم زعاف وقدمه لسيدة على شكل دواء نافع ، ولكن شامت الظروف والاقدار أن يعلم الامير بأمر هذا السم فلما قدم اليه أظهر خوفه ومنعا للريبة اضطر نصر أن يشربه فشربه ومات لساعته

وحدث بعد ذلك بقليل أن اتهم تاجر مسيحي يدعى (حنا) بالتعريض بالنبي محمد ، وذلك أنه كان دائما يقسم بالنبي وحياته كذبا بأنه صادق فيما يقول عن جودة بضاعته واعتدال أثمانها ، فخاطبه القوم في ذلك فقال « لعنة الله على كل من يذكر اسم محمد » وكان في قوله الاخير الكفاية فأمر القاضي بجلده أربعائة جلدة ، وعلى أثر هذه الحادثة صمم جماعات الشهداء على أن ينالوا رضاء المسيح بتقديم أنفسهم للسياف ولم يجدوا اذلك طريقة سوى لعنهم النبي وسبه علانية ، وكان أسبقهم إلى ذلك قس يدعى « اسحاق » وكان في بداية أمره ناموسا لمبعد الرحمن الثاني ثم دخل خدمة الكنيسة حيث تشبعت نفسه بنظرية وجوب الاستشهاد ، فذهب يوما من تلقاء نفسه إلى القاضي وقال « أريد أن أعتنق الاسلام ، فأرشدني إلى السبيل » فسر القاضي وبدأ يحدثه عن الاسلام ، وهنا قاطعه القس قائلا « لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه واقترائه » ثم لعنه وقال « لقد ذهب إلى حيث مصيركم إلى جهنم وبئس القرار » فلطمه القاضي على وجهه ثم قال :

« لعلك نمل من كثرة الشراب أو بك مس في عقلك فتبين ما تقول »

فأجاب القس « إني أملك قواى العقلية تماما ولم أذق الشراب فى يومى وإن إخلاصى لدينى دفعنى إلى ما كان منى ، فأمر القاضى بسجنه وهو يعتقد أن الرجل به جنون ، ولكن عبد الرحمن وقد هاله ما سمع أمر بقتله وصلبه ثم إحراقه ، وفى ٣ يوليو سنة ١٨٥١م نفذ حكم الاعدام وضم المسيحيون اسمه إلى أسماء القديسين . وبعد مقتل اسحاق بيومين تقدم سانكو وسب النبى ف ضرب عنقه ، وفى يوم الأحد ٧ يوليو نال ستة منهم نفس الجزاء لنفس السبب ، وكأن هذا الجزاء قد زاد من اقدامهم فتطوعوا بقطع رؤوسهم ، وبلغ عدد شهدائهم أحد عشر شهيدا فى أقل من شهرين ، ويجدر بنا أن نبين هنا أن أغلبية المسيحيين وقد خلت نفوسهم من ذلك التعصب الشديد أنكروا على إخوانهم ما كانت منهم وعدوا عملهم جنونا أصابهم وأدى بهم إلى الانتحار . وحاجوهم بآيات من أنجيلهم تبين لهم جهلهم ، وقد وافق قسمهم على هذه الآراء وأيدوها ، وعيننا حاول يولوجيوس إثارة نفوسهم ثانية

أما الحكومة الاسلامية فقد وجدت نفسها أمام مسألة خطيرة ، ففكرت فى حل يضع حدا لهذه المذابح من جهة ومنع أولئك القوم من طعنهم الدين الاسلامى من جهة أخرى ، فدعت ذوى الكلمة والنفوذ من المسيحيين إلى عقد مجمع يقرر بطلان طريقة الاستشهاد ، وناب عن عبد الرحمن فى حضور هذا الاجتماع رسول مسيحى من قبله وأمه جوميز بن انطونيان ، وهذا شرح للمجلس سوء عاقبة أعمال الشهداء ، وأنها قد تؤدى إلى استئصال شأفة المسيحيين فى البلاد ، وسأل المجلس أن يصدر نداء يوجهه إلى العالم المسيحى بالاندلس يبين خطأ نظرية الاستشهاد وأن يجيز للأساقفة والقسس سجن من تظهر عليهم هذه النزعات ، وصدر قرار المجلس بذلك ، فلم يأبه يولوجيوس وأتباعه بهذا النداء ، فطوردوا من مكان إلى

مكان وأخيراً قبض عليهم وسجنوا ، وفي السجن قابل يولوجيوس فلورا مرة أخرى .
وفي ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ م أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تدعى ماري
عقب ذلك عفا عبد الرحمن عن يولوجيوس ومن معه ، غير أن هذا العفو
لم يضع حداً لتلك الحالة

أغارة النورمان :

جاء في كتاب تاريخ العرب في اسبانيا المؤلفه المرحوم محمد بك دياب ما يأتي :
في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) جاء على شواطئ أشبونه أربع وخمسون سفينة
تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البطليق وشواطئ الترويج يعرفون
عند الأوربيين بالنورمان أي رجال الشمال ويعرفون عند العرب بالماجوج قهبوا
البلاد وقتلوا العباد ، وأحرقوا المدائن ، فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا
ليدفعوا غائلتهم فلما رأوهم ركبوا السفن أبغنائهم واختفوا ، ثم نزلوا في شاطئ الغرب
وبظهر أنهم لما اجتمعوا عند مصب النهر الكبير انقسموا أقساما : قسم توجه إلى
أفريقية وقسم توجه إلى قانس ثم إلى شدونه . والقسم الثالث دخل النهر وصعد
نحو اشبيلية في ٨ المحرم سنة ٢٣٠ هـ (٢٥١ سبتمبر سنة ٨٤٤ م) ، وكانوا ينهبون
القرى التي على الشاطئين ويملئون سفنهم بالنهب ، وقد ملؤا سكان الشواطئ
رعبا حتى فروا من وجوهم ، ولما وصلوا إلى جزيرة قبيل قبيلتهم جنود العرب
الاجتمعه هناك وحاربهم فغلبوها ، ثم نهبوا اشبيلية ، وكان السكان قد اخلوها
وفروا إلى قرمونه ، وتحصنوا في طليطلة ، فلما جاء المايجوج اليهم غلبهم مسلموا
هذه المدينة ، وفي ثاني عشر هذا الشهر علموا أن الامير أرسل خمس عشرة سفينة
تقل جيوشا شجعانا لتصد هم عن المرور في النهر فانسحبوا واختفوا في المحيط ، وعادوا

إلى شواطئ المغرب ، وقد أمر عبد الرحمن جنود ماردة وشنترين وقلعريّة بالتوجه لمراقبتهم والمحافظة على السواحل ، ولكنهم كانوا قد فعلوا أفاعيلهم قبل أن تجتمع هذه الجنود ، وفي هذه الأثناء أخذ عبد الرحمن في السير وتحت امرته فرسان ليساعدوا أشبيلية ، فلما حضر وشاهد ما اتلفته أيدي هؤلاء البربر المتوحشين بدون أن يقابل منهم أحدا حزن وأمر بأصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف .

وفي تاريخ ابن الأثير « إن عسكر المسلمين قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم ، وسير الأمير جيشا آخر وأتاه المدد من كل ناحية فخرج إليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون ينهزمون ثم ثبتوا وهرموا مقاتليهم إلى مراكبهم ، وقتلوا منهم خمسمائة رجل وأخذوا منهم أربع مراكب وأحرقوها بعدما أخذوا ما فيها ثم خرج المجوس إلى ليلة فأصابوا سبيا ، ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) وقسموا ما كان معهم من الغنيمة ، فخمى المسلمون ودخلوا إليهم في النهر وقتلوا منهم رجلين ، ثم رحل المجوس ، فطرقوا شدونه فغنموا أطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبوا ، ثم لحقوا بالكشونية ، ثم مضوا إلى باجه ثم انتقلوا إلى أشبونة ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد »

أمر عبد الرحمن بإنشاء سفائن في قادس وقرطاجنة وطرجونه لتحفظ وترد اغارة المغيرين إذا عادوا إلى البلاد وناط ذلك بابن يعقوب

أثر حكم عبد الرحمن الثاني :

كان له أثر كبير في ترقية الحركة الفكرية وذلك بتشجيع العلماء وميله إلى الأدباء ، فكان بلاطه مزدهرا برجال العلم والأدب والدين والفلسفة والشعراء ،

وبسبب وفرة المال في خزائنه عمد إلى الإصلاحات الداخلية فبنى القصور وأقام
الجسور وزاد في جامع قرطبة
ومن شعره

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يحواله يبتجارب فشباب رأى القوم عند شبابها
وكان عبد الرحمن يا كرامه زريابا أ كبر ناصر لفن الغناء .

هذا وقد مات عبد الرحمن في سبتمبر سنة ٨٥٢ م قبل أن تنتهى حوادث
النصارى المستشهدين